مجتمع المدينة
قبل الهجرة وبعدها

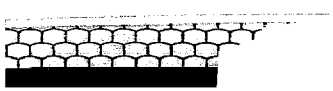

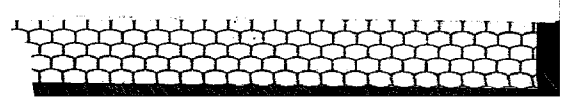

مجتمع المدينة

قبل الهجرة وبعدها

تأليف

سماحة الشيخ حسن خالد

مفتي الجمهورية اللبنانية

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت - ص.ب ١١٠٧١٩

حُقوق الطبع محفوظة

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

* الإدارة : بيروت، شارع مدحت باشا - بناية كريدية تلفون: ٣١٢٢١٣ - برقياً: دانهضة - ص.ب.: ٧٤٩ - ١١ - تلكس: NAHDA 40290 LE

* التوزيع : شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم ٣ غربي جامعة بيروت العربية - تلفون: ٣٠٣٨١٦ - ٣١٦٢٠٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

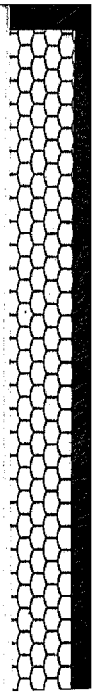

مقدّمة

أخطأ عدد من المفكرين والكتاب الغربيين، إذْ وصف الإسلام بأنّه دين السيف والقوّة، وجاراهم بذلك بعض أبناء هذا الشرق، وبالذات ممن لم يتزودوا بالثقافة الإسلامية، ولم يتعمقوا بدراسة طبيعة الإسلام دراسة تجعلهم يتمكنون من التعرف إلى خطوطه العريضة في السلوك وأصوله الراسخة في التعامل.

ولقد ظلم هؤلاء وأولئك هذا الإسلام، لأنّهم وصفوه بغير ما فيه، ونسبوا إليه ما ليس منه. وذلك لأنَّ السيف، والقوة مقترنة به، يعنيان البطش والعلو في الأرض. وهما ما شجبهما الإسلام في غيره... في فرعون إذْ يقول فيه رب العالمين: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ﴾[1] ثمَّ يتابع فيصف من شاء لهم استلام زمام الأمر والحكم من بعد فرعون فيقول فيهم: ﴿وَنُرِيْدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِيْنَ﴾[2] ويقرر بعد ذلك أنَّ الدار الآخرة ستكون خالصة للصالحين الذين يحسنون إلى الناس ولا يقهرونهم فيقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيْنَ، لاَ يُرِيْدُوْنَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾.

ويخطىء من يصف الإسلام بأنّه دين العلم فقط، لأنَّ العلم وسيلة لا غاية. وكلما كانت الوسيلة خالية من الشوائب نقية من عناصر الفساد صادقة، كانت الغاية

---

(١) (٢) القصص.

كذلك. وإذا دخل الوسيلة شيء من الفساد، انتقل بطبيعة الأمر إلى الغاية، فعطل الكثير من ركائزها وأضعف من معناها وهدفها وفاعليتها.

إنَّ الإسلام دين يحض على النظر في معالم الكون واستنباط المعارف التي تصلح لنفع الإنسان، وتخفف بعض متاعب حياته ومعاشه. وهو يشجع أيضاً على طلب العلم والصبر في تحصيله، لأنَّه مدخل إلى الهدى وطريق إلى الحق والعدل والخير. ولكنه في الأساس بعث به محمداً ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق. وليوفر بها للإنسان على الأرض وفي دروب الحياة ومسارحها عيشاً صالحاً آمناً، وتقلُّباً موفَّقاً محفوفاً بكل مقوِّمات الحريَّة والكرامة والأمن وطمأنينة القلب.

والإسلام كدين يتطلع بما حمل من نظام وفلسفة ونهج، إلى أن يوضع موضع التنفيذ والتطبيق. ولذلك فهو قد يحتاج إلى القوَّة، ولكن ليدافع عن وجوده ويصون كرامته وكرامة المؤمنين به، ويحمي حرِّياتهم وأبدانهم وأرواحهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم، ويضمن أمنهم وطمأنينة نفوسهم وليس للعلو في الأرض والإفساد فيها، ولا لقهر الناس وظلمهم والبطش بهم وإذلالهم. كما أنَّه يتوسل العلم لأنَّه آلة النفاذ إلى حقائق الأشياء، والتعرُّف إلى مقوِّماتها في الكون والناس وما حولهم من الكائنات على اختلافها، ولأنَّه أداة الاستبصار والهداية اللذين بهما يتأهل الإنسان ليتقي عوامل الأذى والشر والضلال، ولينفتح على منافذ البر والخير والحق، وليضمن لنفسه ولمن حوله عمارة الكون، وبناء حضارة تكفل لهم مساراً حياتياً أفضل، وتوفر لهم الأمن والكفاية.

بيد أنَّ عصرنا اليوم على الرغم من قفزاته المشهودة في حقول العلم والتجربة، قد استغرق إلى حدّ عجيب في مظاهر الجهالة والضلال. إذْ هو مع تمكنه من ركوب متون البحار، واعتلاء أجواء الفضاء وقطع المسافات بأدنى الوقت، وغوصه في أعماق المحيطات وتعرفه إلى كثير من أسرارها، وتوصله إلى إقامة محطات في الفضاء، ونزوله على القمر وتعرفه إلى طبيعة أرضه ومناخه، وعلى الرغم من تعرّفه إلى الكثير من أسرار الحياة عند الإنسان والحيوان والنبات، فإنَّه أخطأ إلى حدّ بعيد في الاستفادة من هذه النجاحات في تحسين علاقة الإنسان بأخيه

الإنسان، وتوجيهها لتكون في صالحه المعاشي والعمراني والأمني بصورة خالصة، وسخَّرها على النقيض من ذلك وفي كثير من الأحوال والظروف في إفساد هذه العلاقة وتخريبها بدافع الطمع أو الهوى أو حب السيطرة والاستغلال، حتى آل هذا التقدم العلمي والحضاري مظهراً من مظاهر التنافس في الاقتناء والتكاثر في الأموال ومعارض الزينة والجاه والغنى.

والتفوُّق العلمي المقرون بالتقدُّم التكنولوجي والحضاري، إذا اتَّجه إلى الشؤون الدنيوية والمادية، وأخضع في الغالب لتوفير مكاسب شخصية لا تتعدى المصالح الذاتية من طعام وشراب ولباس ولعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، فإنَّه يغرق الإنسان في الأجواء والظروف المادية الخالصة، التي يصبح فيها موضوع الخسارة والربح الماديين والزيادة والنقص فيهما الهم الشاغل والمحرِّك الأساسي.

وقديماً عاش الناس لهذا الغرض فحسب، ومرُّوا بمثل هذه التجربة، فجاءت الرسالات الإلهية تُبصِّرهم بعواقبها الوخيمة، وتهديهم إلى سبل الخير والرشاد، وتجعل اهتمامهم في الشؤون الدنيوية المادية في حدود كفاية معاشهم الكريم وصلاح أبدانهم وصيانة دمائهم وأعراضهم، ودون أن ينجرف بهم الحال إلى مجرَّد الجمع والكنز والتخزين وإلى استباحة استغلال النفوس البشرية ومجتمعاتها استغلالاً لا يراعى فيه حكم الله في الإباحة والخطر، ولا رضاه وسخطه، بقدر ما تراعى فيه مقاصد الترف والبطر وقضاء الشهوات.

وقد نهى القرآن الكريم عن كنز الأموال وتخزينها، وحرمان وجوه الخير والبر منها فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوْنَهَا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُوْرُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُوْنَ﴾[1] كما نهى عن الترف وبطر المعيشة وأخبر عن مصائر الذين أترفوا في هذه الدنيا، والذين بطرت

(١) التوبة/ ٣٥.

معيشتهم، بأنّها مصائر خزي وبؤس فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيْهَا فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيْراً﴾[1] ويقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيْشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيْلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾[2].

ومما يلفت النظر أنَّ مجتمعات اليوم قد أخذت بحَظ وافر من الحرص على المادة والاستكثار منها والتنافس فيها. وأيام الناس المتقلِّبة تشهد على أنَّ كل هذا عرض زائل وعارية مستردّة، وأنَّ بعضه مطلوب في الحياة ليكون وسيلة يستعان بها لقضاء الحوائج وتيسير الأمور ونوال المقاصد النبيلة، وليس في شكل من الأشكال غرضاً مقصوداً لذاته أبداً.

بل إنَّ الله تعالى قد لفت نظرنا على ألسنة رسله الذين أرسلهم للناس على مدى الدهر إلى هذا المعنى وقال في الكتاب الكريم: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوْا يُؤْتِكُمْ أُجُوْرَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾[3] وقال أيضاً: ﴿إِنَّما الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ في الأَمْوَالِ والأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ ورِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُوْرِ سَابِقُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُوْ الفَضْلِ الْعَظِيْمِ﴾[4].

وفي هاتين الآيتين توجيهٌ أيما توجيه إلى أنَّ السعي الدنيوي سعيان، أحدهما في عرض يعسعس بعسعسة الدنيا وينتهي بانتهاء الحاجة إليه، والآخر فيما يؤهل للفوز في الحياة الأخرى وبرّ وعمل صالح. وهو الذي يبقى. وهو الذي تجتنى ثماره

---

(١) الإسراء/ ١٦.
(٢) القصص/ ٥٨.
(٣) محمد/ ٣٦.
(٤) الحديد/ ٢٠.

وطيِّباته، ويكتسب فضله يوم الدين ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُوْنَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

بل إنَّ التوجيه الرَّباني في معظمه في الأمر والنهي وسرد القصص ورواية أخبار الأولين والغابرين، إنَّما كان ليضع بين يدي الإنسان ما يبصِّره بحقائق الأشياء ومقاصدها، وليحمله على التوسط والاعتدال وسلوك طريق النبيِّين والصدِّيقين والصالحين، والحذر من الانجراف في متاهات الدنيا ومغريات العيش الخالبة يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِيْ قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيْثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيْقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيْلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ﴾[2] ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيْرُوْا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾[3].

وإنَّ الدَّار الآخرة وما أعدَّه الله فيها لعباده من المتقين والفجار غيب لا يحس به الإنسان في نهاره أو ليله ولا في سعيه وجموده، بل إنَّه على العكس يشعر بما حوله مما تقع عليه حواسه من مفاتن الدنيا ومغرياتها ومباهجها المفيد منها أو الضار، ويقع هو تحت وطأة تأثيرها سلباً وإيجاباً في كل لحظة من عمره، ويتكوَّن من ثمرته سعيه المشكور أو المذموم وسجله المشرق أو المظلم.

ولذلك كان لا بدَّ أبداً من التذكير باليوم الآخر وما يكون فيه من حساب وجزاء، ليعي قلب الإنسان ويستقيم سلوكه ويحسن تصرفه وعمله ويقل زلله وخطؤه، وكان لا بدَّ لهذا الإنسان كفرد أو جماعة أو أمة أو دولة من الاندماج في الحياة برفق والأخذ منها والترك بحذر ووعي شديدين، معتمداً في ذلك على القول المأثور: «اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً».

ولقد كانت في التاريخ للإسلام تجربة حكم رائدة أنشأت المجتمع الفاضل

---

(١) الشعراء/ ٨٨ - ٨٩.
(٢) يوسف/ ١١١.
(٣) يوسف/ ١٠٩.

وأقامت الحياة الآمنة المطمئنة التي كان يأتيها رزقها رغداً ومن كل مكان بإذن ربها وستبقى مدى الدهر تبراساً لكل من شاء الاستفادة منها والاستنارة بهديها وسننها. فقد أخذت من كلٍّ من الاتجاه المادي والاتجاه الروحي بطرف، ووازنت بينهما ولم تسمح لأحدهما بالرجحان على الآخر، ونجحت إلى حدّ بعيد ووفرت لرعاياها في عهدها أياماً زاهية من الكفاية والأمن والحرية والكرامة والعزّة.

ولعلَّ ظهورها في مطلع وجود هذه الأمة، كان بفضل الله لتظل المثل الإمام، والقدوة الراشدة التي يسعى الناس من بعدها لترسّم خطواتها، والاسترشاد بهداها.

ولقد قدَّمنا كتابنا هذا وهو يرسم صورة تقريبية عن هذه التجربة الإسلامية الرائدة في الحكم والتنظيم في صدر دورها الطليعي، مقارنة بما كان عليه المجتمع العربي قبلها، ليكون بين يدي القارىء في هذا العصر، وليرى مدى ما كان لها من أثر فعَّال في إصلاح المجتمع الإنساني يومذاك، وإنقاذه من متاهاته النفسيَّة والاجتماعية والمادية التي كانت تشده إلى الأرض وتخلد به إلى التراب وما يخرج من التراب، وتصرفه عن هداية الله التي سيبقى فيها للإنسان وحدها الخير كل الخير والبر كل البر، وليتيسّر له في معرض مطالعاته عن أنظمة هذا العصر وقراءاته عنها وعن أيديولوجياته المتنوعة المقارنة والاختيار...

الشيخ حسن خالد

بيروت

البَابُ الأوَّل

١ ـ شبه الجزيرة العربية.
٢ ـ المدينة قبل الهجرة.
٣ ـ يثرب وجوارها.
٤ ـ الوضع الاقتصادي لمجتمع المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ.
٥ ـ أخلاقهم وعقائدهم.
٦ ـ الأسرة العربية في مجتمع المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ.
٧ ـ الحكم والرياسة.
٨ ـ نبذة عن عقائد المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ.
- عقائد العرب.
- عقائد اليهود.
- النصرانية في المدينة.
٩ ـ مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ.
١٠ ـ الرسول ﷺ والمهاجرون في المدينة.
١١ ـ خلاصة عن مجتمع المدينة لدى دخول الرسول ﷺ.
١٢ ـ الركائز الأساسية في تطوير مجتمع المدينة بعد الهجرة.
١٣ ـ بناء المسجد.

الفصل الأوّل

شبه الجزيرة العربيّة

تعريفها:

إن الحديث عن المدينة ومجتمعها قبل الهجرة وبعدها، يتطلب أن نوطىء بين يديه بمقدمة موجزة عن مناخها الجغرافي الذي اكتسبت منه ولا تزال أكثر مقوّمات وجودها وتكوينها.

حدودها:

يحد شبه الجزيرة العربية شرقاً بحر عمان وخليج العرب ونهر الفرات، وجنوباً بحر العرب، وغرباً البحر الأحمر وقناة السويس التي تقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا وتتصل بالقارة الإفريقية من ناحيتها الشمالية الشرقية حيث تمتد قناة السويس، وتتّصل من طرفها الشمالي بقارة أوروبا عبر سوريا..

وشبه جزيرة العرب هذه فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف. ترتفع تضاريسها غرباً وتأخذ بالانحدار نحو الشرق. ويتراوح ارتفاع جبالها

الموازية لساحل البحر الأحمر ما بين ثلاثة آلاف إلى عشرة آلاف قدم. ويصل ارتفاع قممها في الشمال عند مدْين. وفي الجنوب في اليمن وعسير حوالي عشرة آلاف قدم، بينما تكون خلف مكة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم، وتصل قرب المدينة إلى ثلاثة آلاف قدم.

وتتألف أراضيها الوسطى من هضبة نجد، كما يمتد في الجنوب منها سلاسل جبلية متفاوتة الارتفاع تكثر فيها الوديان.

وتكثر في الجزيرة العربية حِرار. وبخاصة في الأقسام الغربية منها. والحِرار جمع حرّة، وهي أرض بركانية، ويقال لها اللّابه[1] وهي تتكون من ركام من الأحجار البركانية التي تشكل طبقات رقيقة أو سميكة، وهي سوداء نَخِرة كأنها أحرقتها النار[2].

والعجيب أن كثيراً من مناطق هذه الحرار قد آشتهرت بالخصب وبوفرة المياه وبخاصة حرار المدينة وخيبر.

ولقد كانت شبه الجزيرة هذه خالية تقريباً من الأنهار[3] وإن كان يجري فيها بعض الجداول القصيرة التي تفيد في سقي الأراضي وتنشط حركة الزراعة نوعاً ما، ولكنها لا تصلح مطلقاً للملاحة. بيد أن بعض العلماء يرون أنها لم تكن قديماً تخلو من بعض الأنهار الكبيرة لدلالة الآثار التي ترجع بتاريخها إلى قبل ظهور الإسلام على ذلك[4].

وعلى الرغم من أن شبه الجزيرة محاطة من جوانبها الثلاثة بالبحار

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٢/٢٤٢.

(٢) المصباح المنير للمقري.

(٣) المسالك والممالك للاصطخري ٢١.

(٤) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ١/٢٨.

فإنها ذات مناخ صحرائي شديد الحرارة كثيف الجفاف ما عدا اليمن الذي تكثر فيه الأمطار، ويشيع فيه الخصب وتكثر الخضار. وقد ذكر الله تعالى في كتابه من الآيات ما يشير إلى هذا حيث يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[1].

ومناخ شبه الجزيرة الصحرائي هذا، جعل أكثر بقاعها صحارى قاحلة جرداء، وأثّر إلى حدّ بعيد في حرمانها من المناخ الحضاري المدني؛ فأجبر الإنسان فيها من القديم على هجران الكثير من مناطقها واليأس من تكوين المجتمعات فيها، واللجوء إلى البعض، وهو القليل منها، الذي حَبَتْه الطبيعة شيئاً من طراوة المناخ وخصب الأرض، ليبني عندها مسكنه وينشىء عشيرته.

وهكذا فقد كانت جبال الطائف، ومسارحها الخضر تموّن مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود. كما عرف وادي القرى بكثرة بساتينه وغزارة مياهه وتعدّد قراه. وهو طريق دولي قديم ما زالت تسلكه القوافل البشرية في سعيها ما بين الشام واليمن. يقول الله تعالى في كتابه الكريم واصفاً هذا الواقع: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيها قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ ﴾[2].

وقد عاد إلى الجزيرة في هذا العصر بفضل الثروة البترولية التي اكتشفت حديثاً ودرّت على المملكة العربية السعودية وفير الموارد، عاد إليها الكثير من زهوها القديم. وربما زاد على ذلك كثيراً. فقد نقلت إلينا

(١) سبأ ١٥.
(٢) سبأ ١٨.

الأنباء الصحفية والأخبار الإذاعية والأبحاث العلمية، الكثير من الأنشطة الزراعية التي أخذت تعتمد في الجزيرة أحدث الأساليب، وتتوسل بآخر ما توصل إليه الفكر البشري من الوسائل والآلات لتطوير الزراعة وتعزيز الإنتاج واستنباط المياه لريّ الأرض وإغناء المواسم. كما نقلت إلينا صوراً جيدة من النجاحات الكبرى في ذلك في سهول الرياض من منطقة نجد، وفي الطائف والإحساء والقصيم ومناطق عسير وغيرها، مما حدا البعض إلى أن يعتقد بأن المستقبل سيشهد للجزيرة تطوّراً زراعياً جيداً ربما يصل إلى حدود الاكتفاء الذاتي وربما حتى حدود التصدير إلى الخارج.

أقسام الجزيرة:

وقد قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام هي: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن.

المدينة والحجاز:

وإن القسم الذي يعنينا هنا من هذه الأقسام هو الحجاز، لأنه هو الذي تقع فيه المدينة التي نحن في صدد الحديث عنها.

تعريف بالحجاز:

وسمي حجازاً لأنه يمثل سلسلة من الجبال الممتدة من خليج العقبة حتى عسير، تحجز هضبة نجد العالية عن ساحل تهامة الواطىء. وهي تنخفض عند قربها من مكة بينما تعود فترتفع في اتجاهها إلى اليمن حيث تتساقط على قممها الثلوج.

ومن جبال الحجاز، الجبال الواقعة في منطقة المدينة ومكة والطائف. ومنها جبل رضوى الذي يقع بين المدينة وينبع، وجبل حراء

الذي يقع خارج مكة، ويقع فيه الغار الكريم الذي كان فيه ابتداء نزول الوحي على قلب رسول الله ﷺ. ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين مئتين وستمئة متراً.

سهول الحجاز ووديانه:

أما سهول الحجاز فتمتد وتنتشر بين جبال السراة والبحر الأحمر. وتعرف بسهول تهامة، وهي تتسع من جهة اليمن بحيث تكون أحياناً بعرض أربعين ميلاً، ثم تأخذ بالضيق شمالاً حتى تصل إلى منتهاه عند العقبة. وهي على كل حال سواحل حارة رطبة غير صحيّة غالباً، وينخفض بعضها حتى يطلق عليه اسم «الغَوْر».

هذا وتسيل من الحرار في الحجاز أودية. أعظمها وادي أضم الذي يسيل من الجنوب الشرقي لحرّة خيبر، ثم يتجه نحو الجنوب الغربي حتى يقارب يثرب، حيث يتصل به وادي العقيق ووادي القرى، ثم يتجه غرباً فيصبّ في البحر الأحمر جنوب قرية الوجه[1].

ومن أودية الحجاز وادي الرمّة الذي يبدأ من حرّة فدك ويتجه نحو الشرق حتى يصل إلى القصيم. ويبلغ طوله (٩٥٠) كلم. ثم وادي الصفراء وهو كثير النخل والزرع. وقد سلكه رسول الله ﷺ أكثر من مرة. وبينه وبين بدر مسافة مرحلة. وتقع عنده قرية الصفراء الخصبة التي تكثر فيها العيون وتسيل منها باتجاه ينبع، وكذلك وادي القرى الذي يقع بين تيماء وخيبر، ويمرّ به طريق القوافل القديم. ويقال له وادي «الديدبان». وكان كثير العمران الذي لا تزال آثاره تشاهد حتى اليوم[2].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٢/٢١٥، ٧/٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه ١٥/٣٣٨.

مدن الحجاز وقراه:

وعلى تقلب الزمن والتاريخ وعبر تحولات أحداثه وعصوره، نشأت مدن وقرى كثيرة أهمها: مكة، والمدينة، والطائف وخيبر. وقد ساعد على نشوئها أوضاع جغرافية وظروف تاريخية واقتصادية بسبب موقع الحجاز بين الشام واليمن، وصلاحيته ليكون ممراً للقوافل ومكاناً لاستراحتها.

يثرب:

كان اسمها قبل الهجرة «يثرب»، وهي تقع على بعد ثلاثمئة ميل شمال مكة المكرّمة. وتمتاز أرضها بأنها بركانية. وهي بين حرّتين: حرّة واقم في الشرق، وحرّة الوبرة في الغرب. وقد آشتهرت منذ القدم بأنها خصبة وافرة النماء، يمرّ فيها وادي العقيق الذي تصب فيه مياه عذبة. وتحيط بها المزارع من جهاتها كافة ما عدا الجهة الغربيّة.

ولقد نافست المدينة مكة بسبب وقوعها على طريق القوافل نفسها التي تقع عليها مكة. ولكنها لم تبلغ مستواها في التفوق التجاري، وإن امتازت عليها بخصب أرضها ووفرة العيون فيها وانتشار البساتين الخضراء فيها.

هذا ويمتد وادي العقيق الأخضر غربي المدينة فيما وراء حرّة الوبرة إلى ما بعد بئر رومة في شمالها الغربي. وتقع العُريض وعوالي المدينة على يمين القادم إليها من مكة، ويقع في أقصى الشمال جبل أُحُد ثم جبل سلع. وتقع في جنوبها قرية قباء على بعد ميلين منها، حيث يسيل بينهما وادي بطحان، ووادي رانوناء اللذان يتجهان شمالاً بين حرّة الوبرة والمدينة، فيتصلان بالوادي الواقع جنوب جبل أُحُد، حيث ينحدر